الرؤى ....

وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

الرؤى .. وهل تصلح دليلاً للأحكام الشرعية ؟

● تمهيـــــد :

فى الصحائف السابقة عالجنا قضية « الإلهام » أو « الكشف » الذى أفرط فيه بعض الناس ، فجعلوه حُجَّة فى الأحكام الشرعية ، وأحلُّوا به الحلال ، وحرَّموا الحرام ، وأوجبوا الواجبات . وبذلك أضفوا على خواطرهم وأحاديث قلوبهم لوناً من العصمة . فهى لا تكذب ولا تخطىء .

وفرَّط فيه آخرون ، فأنكروا أن يكون للإيمان والتقوى والرياضة والمجاهدة أى أثر فى تنوير القلب وهدايته إلى الصواب فى مفارق الطرقات ، وإعطائه الفرقان فى المتشابهات .

وبيَّنا الرأى السليم ، والمنهج القويم ، الذى انتهى إليه الربَّانيون المحققون ، الذين هُدوا إلى الصراط المستقيم ملتزمين بمحكمات القرآن والسُّنَّة ، غير مائلين إلى غلو الغالين ولا تقصير المقصِّرين .

وبقى علينا هنا تحقيق القول فى قضية « الرؤى » وما يحيط بها ، فهى مكملة لموضوع الإلهام والكشف ، فالإلهام كشف فى حالة اليقظة ، والرؤيا كشف فى حالة المنام . وكلاهما من إدراكات الروح ، التى يستوى عندها النوم واليقظة ، والليل والنهار .

وقد استدل الإمام الغزالى وغيره على صحة الكشف فى اليقظة بصدق الرؤى التى يراها النائم فى المنام ، والتى صح الحديث بأنها جزء من أجزاء النبوة .

لهذا كان علينا أن نستكمل البحث فى موضوع « الرؤيا » ، ومدى إمكان الاعتماد عليها فى إثبات الأحكام ، ومعرفة الحلال والحرام ، وهل يُعتد بها دليلاً مستقلاً من أدلة الشرع فى الإثبات والنفى أو لا ؟ وفى أى مجال يمكننا اعتبارها والاعتداد بها ؟

هذا ما نحاول فى هذه الصحائف أن نبحث فيه ، ونلقى عليه بعض الضوء . فى إطار الأصول الشرعية ، والأدلة الثابتة من كتاب الله تعالى ، وسُـنَّة رسوله ﷺ .

وقد عرض القرآن الكريم لقضية الرؤيا فى قصة الخليل إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام . وفى قصة يوسف فى أكثر من موضع .

* *

● رؤيا الأنبياء وحى :

واتفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء إحدى طرق الوحى ، وهى داخلة فى قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ، إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ (١) ، فقوله : ﴿ **إِلا وَحْياً** ﴾ يشمل « الإلهام » ، وما يطلق عليه « النفث فى الروع » فى اليقظة ، كما يشمل « الرؤيا » فى النوم ، وعلى هذا اعتبرت رؤيا إبراهيم فى ذبح ولده وحياً وأمراً من الله تبارك وتعالى .

* *

● أنواع الرؤيا كما فصَّلتها السُّـنَّة :

أما السُّـنَّة النبوية فقد فصَّلت فى أمر الرؤيا ، وورد فيها عدد وافر من الأحاديث ، حتى إن الإمام البخارى عقد فى جامعه الصحيح كتاباً خاصاً سماه كتاب « التعبير » أورد فيه تسعة وتسعين حديثاً ، وافقه مسلم على تخريجها كلها ، إلا بضعة أحاديث ، كما أورد فيه عشرة آثار عن الصحابة والتابعين ، كما ذكر ذلك الحافظ فى الفتح فى آخر كتاب التعبير (٢) .

---

(١) الشورى : ٥١

(٢) فتح البارى : ٤٤٦/١٢ ، طبعة دار الفكر المصوَّرة عن السَّلَفية .

ومن هذه الأحاديث :

حديث أبى قتادة : « الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم الحلم يكرهه ، فليبصق عن يساره ، وليستعذ بالله ، فلن يضره » .

وحديث أنس بن مالك : « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وحديث أبى سعيد الخدرى : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هى من الله ، فليحمد الله عليها وليُحدِّث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هى من الشيطان ، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره».

وحديث أبى هريرة : « لم يبق من النبوة إلا المبشِّرات » ، قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : « الرؤيا الصالحة » .

وحديث أنس : « مَن رآنى فى المنام فقد رآنى ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » .

وحديث أبى سعيد : « مَن رآنى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتكوننى » . . والجزء الأول من رواية أبى قتادة أيضاً .

* *

● حقيقة الرؤيا وصلتها بعالَم الغيب :

والناس فى قضية الرؤيا جَدُّ متفاوتين :

فمن الناس مَن غلظ حجابهم - كالماديين في عصرنا وفى كل عصر ، وكأتباع مدرسة التحليل النفسى - فهم ينكرون الرؤيا الصادقة ، ولا يرون الرؤى كلها إلا انعكاساً لما فى النفس حالة اليقظة ، أو لما يختبىء فى سراديب العقل الباطن « اللاشعور » .

وفى مقابل هؤلاء مَن يعتمدون فى حياتهم على الرؤى كأنها وحى ، وينتظرون فى كل أمر أن يروا فيه رؤيا تشير لهم إلى الطريق . بل منهم مَن يجعلها حُجَّة يستدلّ بها كما يستدلّ بالسُّنَّة والكتاب ، أو الإجماع والقياس .

وفى بعض الجمعيات الإسلامية انشق فريق من أعضائها على قيادتهم ، وناصبوها العداء بناء على رؤى رآها بعضهم ، وكأنما اعتبروها وحياً .

وذكر الأستاذ فهمى هويدى فى إحدى مقالاته الأسبوعية فى « الأهرام » القاهرية وغيرها : أن أحد حكام المسلمين ، بعد أن قرر إجراء الانتخابات فى بلده فى موعد مُعيَّن ، عاد فألغاها نتيجة لرؤيا رآها ، حذَّرته من عواقبها !

وهكذا أصبحت الرؤى تتدخل فى الدين ، وتتدخل فى السياسة ، وتتدخل فى شتَّى شئون الحياة .

ونحن لا ننفى صدق بعض الرؤى ، فهذا أمر أثبته النص ، وأثبته الواقع ، وأيَّده العلم .

أما النصوص ، فحسبنا ما ذكره القرآن فى سورة يوسف ، من رؤياه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين له . ومن رؤيا الملك سبع بقرات سمان . . . ومن رؤيا السجينين معه . . . إلخ . وكلها كانت رؤى صادقة ، ووقعت كما رؤيت .

وكذلك رؤيا الرسول ﷺ أنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين .

وفى الحديث الصحيح عند البخارى : « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (١) .

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص بالعدد المذكور :

١ - أن أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى هو الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح ، وذلك نصف سنة ، ثم انتقل إلى وحى اليقظة ، مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بعث إلى أن توفى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) رواه عن أربعة من الصحابة : عبادة بن الصامت ، وأنس ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد .

فنسبة مدة الوحى بالرؤيا إلى سائر المدة نسبة واحد إلى ستة وأربعين .

قال ابن القيم : « وهذا حسن ، لولا ما جاء فى الرواية الصحيحة الأخرى . . إنها جزء من سبعين جزءاً » .

٢ - وقد قيل فى الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائى ، فإن رؤيا الصِّدِّيقين من ستة وأربعين ، ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين . والله أعلم (١) .

٣ - وفى تفسير الآلوسى : لعلّ المقصود من كل ذلك - على ما قيل - مدح الرؤيا الصادقة والتنويه برفعة شأنها ، لا خصوصية العدد ، ولا حقيقة الجزئية (٢) .

وفى حديث آخر : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » . قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن ، أو تُرَى له » (٣) .

فالمراد بهذه الأحاديث وما شابهها تشبيه أمر الرؤيا الصادقة بالنبوة ، لأن فيها اطلاعاً على الغيب من وجه ما ، لا أن الرؤيا نبوة ، لأن جزء الشىء - إن أثبتنا حقيقة الجزئية هنا - لا يستلزم ثبوت وصفه للشىء كله . كمن قال : « لا إله إلا الله » رافعاً بها صوته ، لا يسمى مُؤذِّناً ، ولا يقال : إنه أذَّن ، وإن كان ما قال جزءاً من الأذان .

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم : ١/ ٥٠ ، طبعة السنة المحمدية . وقال ابن بطال فى بيان كون الرؤيا جزءاً من النبوة : المعنى أن الرؤيا خبر صادق عن الله لا كذب فيه ، كما أن معنى النبوة : نبأ صادق من الله لا يجوز عليه الكذب ، فشابهت الرؤيا النبوة فى صدق الخبر ، وأما خصوص العدد ، فقال المازرى : هو ما أطلع الله عليه نبيه ، لأنه يعلم من حقائق النبوة ما لا يعلمه غيره . (انظر فتح البارى : ١٦/ ١٥ - ٢٢ ، طبعة الحلبى ، وقد أطال فيها النقول والبحث) .

(٢) تفسير روح المعانى : ١٢/ ١٨٢ (٣) رواه البخارى عن أبى هريرة .

ويؤيّد هذا حديث أم كُرز الكعبية قالت : سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ذهبت النبوة وبقيت المبشِّرات » (١) .

وعلى كل حال ، فقد دلَّت هذه الأحاديث الصحيحة وغيرها - كما دلّ القرآن الكريم فى قصة يوسف وغيرها - على أن من الرؤى ما يتكشف فيه للرائى بعض الغيب المستور ، ولهذا عُدَّت جزءاً من النبوة ، كما أن منها ما يتضمن نوع بشارة للمؤمن بما يَسرُّه ، ومثله النذارة والتحذير من معصية أو غفلة ، أو التنبيه على طريق خير ورُشد .

وهذا هو مجال الرؤيا الصادقة الذى يثبته المؤمنون بالإسلام ، لا أكثر من ذلك .

فليست حُجَّة شرعية ولا دليلاً يُتوصل بها إلى معرفة أحكام الدين .

أما غير الإسلاميين قديماً وحديثاً ، فلهم فى ظاهرة الرؤى تخرصات وتخبطات وأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان ، ولا قام عليها برهان ، ولا أيَّدها واقع .

وهذا الذى جاءت به النصوص الهادية ، أيَّده ويؤيّده الواقع المُشاهَد ، فلا تزال تجارب الناس فى كل مكان ، وفى كل زمان ، إلى يومنا هذا ، تثبت أن هناك رؤى تتنبأ بأحداث وأشياء ، ثم لا تلبث أن تتحقق .

وما منا إلا مَن شاهد من نفسه ، وممن حوله شيئاً من هذا الجانب ، ومَن لم يشاهد ذلك من نفسه ، سمعه من كثيرين غيره من الثقات ، ومن شتَّى الفئات ، ممن لا يُعقل تواطؤهم على الكذب .

أما العلم الحديث فقد اكتشف كثير من رجالاته أن فى الإنسان طاقات عجيبة لم تُعرف كلها بعد ، يمكن بها قراءة الأفكار ، واستشفاف بعض

---

(١) أخرجه أحمد وابن ماجه وصححه ابن خزيمة وابن حبان .

المجهول ، والتخاطب عن بُعد ، وللغربيين فى ذلك تجارب وملاحظات ، وكتب ومؤلَّفات .

ولهذا يكون من التهور والتسرّع الذى لا يليق بإنسان يحترم نفسه ، ويحترم تجارب البَشر ، ويحترم مواهب النوع الإنسانى - المبادرة بإنكار الرؤيا الصادقة إنكاراً كلياً ، لا يقوم على أساس ولا برهان ، إلا جحد ما وراء الحس ، والانحصار فى قمقم المادة الكثيفة ، وعدم الثقة بما وهب اللهُ الإنسانَ من قدرة على اختراق حاجز الزمان والمكان ، واستشفاف بعض ما وراء عالَم الشهادة ، مما يخبئه عالَم الغيب .

ولقد حكوا عن صاحب نظرية التحليل النفسى « فرويد » أنه لم ينكر - على كل ما فى نظريته من تجاوز وتمحل وتحكم - أن هناك أحلاماً تحمل معنى التنبؤ .

وبعد هذا البيان فى تفسير ظاهرة الرؤى الصادقة ، يلزمنا أن ننبه هنا على أمرين فى غاية من الأهمية :

* الرؤى مجرد مبشرات أو منبهات :

الأول : أن الرؤى الصالحة مجرد مُبشِّرات أو منبهات ، لتثبيت قلوب المؤمنين أو تقوية عزائمهم ، وليست « مخدّرات » يتعاطاها بعض السلبيين من الناس ، ليتخذوا منها تكأة للاتكالية الواهنة ، وللهرب من الواقع ، أو للقعود عن مجاهدة الفساد ، ومواجهة الظلم والظلام . فهو إذا رأى فى منامه أن طاغية سيسقط ، أو أن نظاماً سينهار ، أو أن طائفة ستنتصر ، هلَّل وكبَّر ، وضحك واستبشر ، ووقف عند هذا الحد ، لا يقوم بجهد إيجابى فى تحويل الغيب المترقب إلى واقع ملموس ، مكتفياً بإلقاء العبء على كاهل القَدَر الذى يقول للشىء : « كن » فيكون !

والنبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه لم يكونوا ينظرون إلى الرؤيا

أكثر من أنها بُشرَى ، ثم يمضون فى خطتهم وجهادهم ، سائرين على الدرب ، غير وانين ولا متثاقلين ، ولا مهملين لسنن الله .

وهذا واضح من سيرة النبى - صلى الله عليه وسلم - بعد أن رأى أنه وأصحابه دخلوا المسجد الحرام آمنين .

هذا مع الفرق البيِّن الشاسع بين رؤيا ليس فى صدقها شك - كرؤيا الرسول ﷺ - ورؤى ربما كانت من أحاديث النفس وأمانيها فى اليقظة ، تتشكل فى صورة رؤى بالليل ، على نحو ما قال المثل : « الجوعان يحلم بأنه فى سوق العيش » .

*

* الرؤيا ليست حُجَّة شرعية :

الثانى : أنّ الرؤيا لا تُعتبر دليلاً شرعياً ، ولا يُحتج بها على جواز فعل أو ترك ، ولا على منع أو استحباب ، وذلك لأسباب :

١ - أن الشرع قد حدَّد أدلة الأحكام فى الكتاب والسُّنَّة ، وما دلا عليه من الإجماع والقياس الصحيح ، ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا زيد أو عمرو من البَشر غير المعصومين . قال تعالى : ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (١) .

وقال : ﴿ **وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ** ﴾ (٢) ، وقال : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُواْ** ﴾ (٣) .

٢ - أن منابع الرؤيا متعددة متنوعة ، فهى كالكشف ، منها ما هو رحمانى ،

---

(١) الأعراف : ٣ (٢) المائدة : ٩٢ (٣) الحشر : ٧

ومنها ما هو نفسانى ، ومنها ما هو شيطانى . فمن أين يأتى اليقين بأن رؤيا فلان هذه رحمانية ، لا نفسانية ولا شيطانية ؟

قال صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدِّث الرجل نفسه فى اليقظة ، فيراه فى المنام » ، وفى لفظ : « إن الرؤيا قد تكون حقاً وهى المعدودة من النبوة ، وقد تكون من الشيطان ، وقد تكون من حديث النفس » .

وعند ابن ماجه - بسند حسن كما فى الفتح - مرفوعاً : « الرؤيا ثلاث : منها أهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم [1] ، ومنها ما يهمّ به الرجل فى يقظته فيراه فى منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » ، فالرؤيا الصادقة التي هى من دلائل الهداية هى التى من الله خاصة ، وكيف يمكن التمييز بين الأنواع الثلاثة ، إلا بعرضها على ميزان آخر ، وهو الشرع ؟ فرؤيا الأنبياء وحى ، وهى حق ، لأن الوحى لا يدخله خلل ، لأنه محروس من الشيطان ، هذا باتفاق الأُمَّة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم فلا عصمة لها ، ولهذا وجب أن تُعرض على الوحى الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها .

٣ - أن النائم ليس من أهل التحمل ، وهو غير مأمون على ضبط ما رآه ، ولذا رُفِع عنه حكم التكليف .

٤ - أن الغالب فى الرؤيا أن تكون على خلاف ظاهرها ، فهى عادة رموز

---

(١) مثاله : ما ثبت عند مسلم من حديث جابر قال : جاء أعرابى فقال : يا رسول الله ؛ رأيت فى المنام كأن رأسى قُطِع فأنا أتبته . وفى لفظ : « فقد خرج فاشتددتُ فى أثره » ! ، فقال : « لا تُخبر بتلاعب الشيطان بك فى المنام » ، وفى رواية له : « إذا تلاعب الشيطان بأحدكم فى منامه فلا يُخبر به الناس » .

وإشارات لا يفطن إلى حقيقتها إلا الأقلُّون من الناس . ولهذا اختُصَّ يوسف بأن الله علَّمه تأويل الأحاديث ، أى الرؤى . وكذلك قال هو عن نفسه مناجياً ربّه : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (١) ، ومَنْ مِنَ الناس كان يمكن أن يؤوِّل رؤيا ملك مصر للبقر والسنبلات بما أوَّله يوسف عليه السلام ؟ لقد عجز المعبِّرون فى عصره وقالوا : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾ (٢) . وحق لهم ما قالوا .

ولقد يرى الشخص الواحد منامين متشابهين فى وقتين أو حالين مختلفين ، فيُفَسَّر كل منهما بعكس ما يُفسَّر به الآخر .

ولهذه الأُمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحُجَّة ولا تُتخذ دليلاً شرعياً . وإنما هى تبشير وتحذير وتنبيه ، ولهذا سماها الرسول : « المبشِّرات » .

ولكنها قد تُعتبر وتصلح للاستئناس بها فقط إذا وافقت حُجَّة شرعية صحيحة ، كما ثبت عن ابن عباس : أنه كان يقول بمتعة الحج ، لثبوتها عنده بالدليل السمعى من الكتاب والسُّنَّة ، فلما رأى بعض أصحابه رؤيا توافق ذلك ، استبشر بها ابن عباس .

فمجرد الاستبشار بمثل هذا لا يضرّ ، لأن العمدة فى الموضوع إنما هو الاستدلال الشرعى .

يقول العلامة ابن القيم : والرؤيا : مبدأ الوحى ، وصدقها بحسب صدق الرائى ، وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهى عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطىء ، كما قال النبى ﷺ ، وذلك لبُعد العهد بالنبوة وآثارها ، فيتعوَّض المؤمنون بالرؤيا . وأما فى زمن قوة نور النبوة : ففى ظهور نورها وقوته ما يغنى عن الرؤيا .

---

(١) يوسف : ١٠١ (٢) يوسف : ٤٤

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة ، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج مَن بعدهم إليها لضعف إيمانهم ، وقد نص أحمد على هذا المعنى .

وقال عبادة بن الصامت : « رؤيا المؤمن كلام يُكلِّم به الرب عبده فى المنام » ، وقد قال النبى ﷺ : « لم يبق من النبوة إلا المبشِّرات » . قيل : وما المبشِّرات ، يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو تُرَى له » . وإذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب ، وقد قال النبى ﷺ لأصحابه لما أُروا ليلة القدر فى العشر الأواخر ، قال : « أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر ، فمَن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان » .

والرؤيا كالكشف ، منها رحمانى ، ومنها نفسانى ، ومنها شيطانى ، وقال النبى ﷺ : « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يُحدِّث به الرجل نفسَه فى اليقظة ، فيراه فى المنام » .

والذى هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التى من الله خاصة .

ورؤيا الأنبياء وحى ، فإنها معصومة من الشيطان ، وهذا باتفاق الأُمَّة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتُعرض على الوحى الصريح ، فإن وافقته وإلا لم يُعمل بها ، فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت ؟

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى ، بل لا تكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه ، لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك ، ومَن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهى ، ولينم على طهارة كاملة مستقبل القِبْلة ، ويذكر الله حتى تغلبه عيناه ، فإن رؤياه لا تكاد تكذب ألبتة .

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار ، فإنه وقت النزول الإلَهى ، واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين ، وعكسه رؤيا العَتَمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية . وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « رؤيا المؤمن كلام يُكلِّم به الرب عبده فى المنام » .

وللرؤيا مَلَك موكل بها ، يُريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله ، فيضربها لكل أحد بحسبه . وقال مالك : « الرؤيا من الوحى » ، وزَجَر عن تفسيرها بلا علم . وقال : « أتتلاعب بوحى الله » ؟!

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بها ، يخرجنا ذكرها عن المقصود [1] . والله أعلم .

* *

● رؤيا النبى ﷺ يثبت بها حكم شرعى :

بل أزيد على ذلك فأقول :

إنَّ رؤيا النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام آمراً بشىء أو ناهياً عن آخر ، أو مظهراً حبه لأمر أو شخص أو طائفة ، أو مبدياً كراهته وسخطه على فرد أو جماعة أو موقف أو عمل - كل ذلك لا يؤخذ به ، ولا يثبت بمثله حكم شرعى من وجوب أو استحباب أو تحريم أو كراهة أو إباحة ، أو ولاء أو براءة أو عداوة .

وإنما يُعرض ما يكون من ذلك على الشريعة الثابتة المعصومة ، فإن وافقها فبها ونعمت ، وتكون الحُجَّة هى الشريعة ، أما الرؤيا فللتأنيس فقط .

وإن لم يوافق ذلك الشريعة رُفِض ولا شك ، لأن الذى كلَّفنا الله اعتقاده والعمل به هو ما أوحاه إلى رسوله فى حياته ، لا ما تجىء به رؤياه فى المنام

---

(١) مدارج السالكين : ١/ ٥٠ - ٥٢ - الطبعة الأولى - طبعة السُّنَّة المحمدية .

بعد وفاته . فإن الله لم يقبضه إليه إلا بعد أن أكمل الدين وأتمّ النعمة ، وترك الأُمَّة على المحَجَّة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

ذكر ابن حزم فى « المحلى » أنّ بعضهم احتج على منع الصائم من القُبْلة فى النهار بخبر عن ابن عمر قال فيه : قال عمر : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فرأيته لا ينظرنى ، فقلت : يا رسول الله ؛ ما شأنى ؟ فقال : « ألست تُقَبِّل وأنت صائم » ؟ قلت - القائل عمر - : فوالذى بعثك بالحق ، لا أُقَبِّل بعدها وأنا صائم !

وعقّب أبو محمد ابن حزم على هذا الخبر بقوله : الشرائع لا تؤخذ بالمنامات ، لا سيما وقد أفتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عمر فى اليقظة حياً بإباحة القُبْلة للصائم . فمن الباطل أن ينسخ ذلك ميتاً ! نعوذ بالله من هذا (١) .

وذكر ابن حزم هنا الخبر الذى أخرجه أبو داود عن جابر قال ، قال عمر ابن الخطاب : هششتُ فقبَّلت وأنا صائم . فقلت : يا رسول الله ، صنعتُ اليوم أمراً عظيماً : قبَّلتُ وأنا صائم ! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أرأيتَ لو مضمضتَ من الماء وأنت صائم » ؟ قلت : لا بأس به . قال : « فمه » ؟ (٢) .

فبيَّن له أن القُبْلة من الجِماع المحظور ، كالمضمضة من الشرب الممنوع ، كلتاهما لا تُفطر . ولهذا يُستدلّ بهذا الحديث على إثبات القياس ؛ لأن النبى - صلى الله عليه وسلم - أثبت للشىء حكم نظيره وهو القياس .

---

(١) المحلى : ٦/٥٠٧ ، طبعة الإمام .

(٢) رواه أبو داود فى الصوم برقم (٢٣٨٥) ، وابن خزيمة فى صحيحه (١٩٩٩) ، وابن حبان كما فى « الموارد » برقم (٩٠٥) ، والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى (١ : ٤٣١) .

وأما قوله - صلى الله عليه وسلم : « مَن رآنى فى المنام فقد رآنى ، فإن الشيطان لا يتمثل بى » ، فهو حديث صحيح رواه البخارى عن أنس ، ومثله عن أبى سعيد الخدرى : « مَن رآنى فقد رأى الحق ، فإنَّ الشيطان لا يتكوننى » ، وعن أبى قتادة : « إنَّ الشيطان لا يتراءى بى » .

وعن أبى هريرة : « ولا يتمثل الشيطان بى » ، أو « لا يتمثل فى صورنى » وكلها عند البخارى ، فصحتها مما لا ريب فيه .

ومثلها عند مسلم وابن ماجه من حديث جابر : « إنه لا ينبغى للشيطان أن يتمثل بى » .

ومعنى هذا الحديث برواياته كافة : أنَّ الله أكرم نبيه وأكرم أُمَّته بأن منع الشيطان أن يظهر فى صورته - صلى الله عليه وسلم - فى الرؤيا ، لئلا يكذب على لسانه ، ويُضلِّل الأُمَّة .

فمع أن الله أعطاه القدرة على التشكل فى أى صورة أراد ، لم يُمكِّنه من التصور فى صورته - صلى الله عليه وسلم - فمَن رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الرؤيا ، فقد رآه حقاً ، أو رأى الحق ، كما صحَّ عنه ، فليست رؤياه من أضغاث الأحلام ، ولا من وسوسة الشيطان .

ومعنى الحديث ، كما قال جماعة من العلماء : إذا رآه على الصفة التى كان عليها فى حياته ، لا على صفة مضادّة لحاله ، فإن رؤى على غيرها كانت رؤيا تأويل لا رؤيا حقيقة ، فإن من الرؤيا ما يخرج على وجهه ، ومنها ما يحتاج إلى تأويل .

وهذا ما اعتمده إمام المعبِّرين للرؤى محمد بن سيرين رحمه الله . فقد قال تعقيباً على الحديث المذكور : « هذا إذا رآه فى صورته » ، كما علقه عنه البخارى .

وذكر الحافظ فى الفتح عن أيوب قال : كان - يعنى محمد بن سيرين - إذا

قصّ عليه رجل أنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : صف لى الذى رأيته - فإن وصف له صفة لا يعرفها ، قال : لم تره . قال الحافظ : سنده صحيح . ووجدتُ له ما يؤيده ، فأخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب : حدَّثنى أبى ، قال : قلت لابن عباس : رأيتُ النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام ، قال : صفه لى ، قال : ذكرت الحسن بن علىّ ، فشبهته به ، قال : قد رأيته ، وسنده جيد [1] .

وهذا القول من ابن عباس من الصحابة ، ومن ابن سيرين من التابعين ، يدلّ على أنَّه ليس كل مَن رأى شخصاً فى المنام خُيِّل إليه أنه رسول الله ، يكون قد رأى رسول الله حقاً .

وعلى ذلك جرى علماء التعبير ، فقالوا : إذا قال الجاهل : رأيتُ النبى صلى الله عليه وسلم فإنه يُسأل عن صفته ، فإن وافق الصفة المرويّة - أى فى كتب الحديث والسيرة - وإلا فلا يُقبل منه [2] .

ومن جهة أخرى ، فإن النائم ليس من أهل التحمل للرواية ، لعدم ضبطه وحفظه [3] ، فلا يؤخذ ما قاله بعد يقظته حُجَّة مطلقة .

وبهذا كله نعلم أن لا حُجَّة للمنحرفين والمبتدعين فى اتخاذهم المنامات والرؤى دليلاً يستندون إليه ، مبررين بها بدعهم وانحرافاتهم التى ما أنزل الله بها من سلطان .

وللإمام أبى إسحاق الشاطبى كلام فى موضوع الرؤيا ردَّ به على هؤلاء المبتدعة ، وهو غاية فى الرصانة والتحقيق والجودة ، أنقله هنا لما فيه من قوة الحُجَّة ، ووضوح المحجَّة .

* *

---

(١) فتح البارى : ١٦/٣٨ (٢) المرجع السابق ص ٤٢

(٣) انظر إرشاد الفحول للشوكانى ص ٢٤٩ ، الطبعة الأولى - طبعة مصطفى البابى الحلبى - ١٩٣٧

● تحقيق الإمام الشاطبى فى موضوع الرؤيا :

قال الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » :

« وأضعف هؤلاء (يعنى المبتدعة) احتجاجاً : قوم استندوا فى أخذ الأعمال إلى المنامات [1] - وأقبلوا وأعرضوا بسببها ، فيقولون : رأينا فلاناً الرجل الصالح (أى فى المنام) ، فقال لنا : اتركوا كذا ، واعملوا كذا ، ويتفق مثل هذا كثيراً للمتمرسين [2] برسم التصوف ، وربّما قال بعضهم : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى النوم ، فقال لى كذا ، وأمرنى بكذا ، فيعمل بها ، ويترك بها ، مُعْرِضاً عن الحدود الموضوعة فى الشريعة . وهو خطأ ، لأن الرؤيا من غير الأنبياء لا يُحكم بها شرعاً على حال ، إلا أن تُعْرَض على ما فى أيدينا من الأحكام الشرعية ، فإن سوَّغهَا عملَ بمقتضاها ، وإلا وجب تركها والإعراض عنها ، وإنما فائدتها البشارة أو النذارة خاصة . وأما استفادة الأحكام فلا ، كما يحكى عن الكنانى - رحمه الله - قال : رأيت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى المنام . فقلت : ادع الله ألا يميت قلبى . فقال : « قل كل يوم أربعين مرة : يا حىّ يا قيوم ، لا إلَه إلا أنت » ، فهذا كلام حسن لا إشكال فى صحته ، وكون الذِكْر يُحيى القلب صحيح شرعاً . وفائدة الرؤيا : التنبيه على الخير ، وهو من ناحية البشارة ، وإنما يبقى الكلام فى التحديد بالأربعين ، وإذا لم يوجد على اللزوم (يعنى إذا لم يلتزم به ويدم عليه) استقام .

فلو رأى فى النوم قائلاً يقول : إنَّ فلاناً سرق فاقطعه ، أو عالِم فاسأله ، أو اعمل بما يقول لك ، أو فلان زنى فحدّه ، وما أشبه ذلك ، لم يصح له

---

(١) فى الأصل : المقامات ، وهو غلط ناسخ أو طابع ، بدليل السياق .

(٢) تمرس بالشىء : احتك به ، وتمرس بدينه : تلعَّب به ، وعبث كما يعبث البعير . والمراد بهم هنا : المقلِّدون للصوفية فى رسومهم الظاهرة دون أخلاقهم وأعمالهم .

العمل ، حتى يقوم له الشاهد فى اليقظة ، وإلا كان عاملاً بغير شريعة ، إذ ليس بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحى .

ولا يقال : إن الرؤيا من أجزاء النبوة فلا ينبغى أن تُهمل ، وأيضاً إن المخبر فى المنام قد يكون النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو قد قال : « مَن رآنى فى النوم فقد رآنى حقاً ، فإنّ الشيطان لا يتمثل بى » ، وإذا كان ، فإخباره فى النوم كإخباره فى اليقظة ، لأنَّا نقول : إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة فليست إلينا من كمال الوحى ، بل جزء من أجزائه ، والجزء لا يقوم مقام الكلّ فى جميع الوجوه ، بل إنما يقوم مقامه فى بعض الوجوه ، وقد صرفت إلى جهة البشارة والنذارة ، وفيها كاف [1] .

وأيضاً فإنّ الرؤيا التى هى جزء من أجزاء النبوة من شرطها : أن تكون صالحة من الرجل الصالح ، وحصول الشروط مما يُنظر فيه ، فقد تتوفر ، وقد لا تتوفر .

وأيضاً فهى منقسمة إلى الحلم ، وهو من الشيطان ، وإلى حديث النفس ، وقد تكون سبب هيجان بعض أخلاط ، فمتى تتعين الصالحة حتى يُحكم بها ، وتُترك غير الصالحة ؟

ويلزم أيضاً على ذلك أن يكون تجديد وحى بحكم بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو منهى عنه بالإجماع .

يُحكى أن شريك بن عبد الله القاضى دخل على المهدى ، فلما رآه قال : علىّ بالسيف والنطع . قال : ولِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيتُ فى منامى كأنك تطأ بساطى ، وأنت معرض عنى ، فقصصت رؤياى على مَن عبّرها . فقال لى : يُظهِر لك طاعة ، ويُضمر معصية . فقال له شريك : والله ما رؤياك برؤيا إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولا معبِّرك بيوسف الصِّدِّيق عليه السلام !

---

(١) كذا ، ولعل فى الكلام حذفاً .

فبالأحلام الكاذبة تضرب أعناق المؤمنين ؟! فاستحيا المهدى وقال : اخرج عنى ، ثم صرفه وأبعده .

وحكى الغزالى عن بعض الأئمة : أنه أفتى بوجوب قتل رجل يقول بخلق القرآن . فروجع فيه ، فاستدلّ بأنّ رجلاً رأى فى منامه إبليس قد اجتاز بباب المدينة ولم يدخلها ، فقيل : هل دخلتها ؟ فقال : أغنانى عن دخولها رجل يقول بخلق القرآن (وذكر اسمه) ، فقام ذلك الرجل فقال : لو أفتى إبليس بوجوب قتلى فى اليقظة هل تقلدونه فى فتواه ؟ فقالوا : لا . فقال : قوله فى المنام لا يزيد عن قوله فى اليقظة !

وأما الرؤيا التى يُخبر فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الرائى بالحكم ، فلا بدّ من النظر أيضاً ، لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته ، فالحكم بما استقر ، وإن أخبر بمخالف فمحال ، لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة فى حياته ، لأنّ الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرائى النوميّة ، لأن ذلك باطل بالإجماع . فمَن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه ، وعند ذلك نقول : إن رؤياه غير صحيحة ، إذ لو رآه حقاً لم يُخبره بما يخالف الشرع » .

* *

● تأويل حديث : « مَن رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً » :

قال الشاطبى : « لكن يبقى النظر فى معنى قوله - صلى الله عليه وسلم - : «مَن رآنى فى النوم فقد رآنى » . وفيه تأويلان :

أحدهما : ما ذكره ابن رشد إذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة فى قضية ، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال له : لا تحكم بهذه الشهادة فإنها باطلة ! فأجاب بأنه لا يحلّ له أن

يترك العمل بتلك الشهادة ، لأن ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا ،وذلك باطل لا يصح أن يُعتقد ، إذ لا يعلم الغيب من ناحيتها إلا الأنبياء الذين رؤياهم وحى ، ومَن سواهم إنما رؤياهم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة .

ثم قال : وليس معنى قوله : « مَن رآنى فقد رآنى حقاً » أن كل مَن رأى فى منامه أنه رآه فقد رآه حقيقة ، بدليل أن الرائى قد يراه مرات على صور مختلفة ، ويراه الرائى على صفة ، وغيره على صفة أُخرى ، ولا يجوز أن تختلف صور النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا صفاته ، وإنما معنى الحديث أنَّ مَن رآنى على صورتى التى خُلقتُ عليها ، فقد رآنى ، إذ لا يتمثل الشيطان بى ، إذ لم يقل : مَن رأى أنه رآنى وإنما قال : « مَن رآنى فقد رآنى » ، وأنَّى لهذا الرائى الذى رأى أنه رآه على صورته أنه رآه عليها ؟ وإن ظنَّ أنه رآه ، ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها ، وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته .

فهذا ما نُقِل عن ابن رشد وحاصله يرجع إلى أن المرئى قد يكون غير النبى - صلى الله عليه وسلم - وإن اعتقد الرائى أنه هو .

والتأويل الثانى : يقول علماء التعبير : إنّ الشيطان قد يأتى النائم فى صورة ما من معارف الرائى وغيرهم . فيشير إلى رجل آخر : هذا فلان النبى ، وهذا المَلَك الفلانى ، أو من أشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به ، فيوقع اللبس على الرائى بذلك ، وله علامة عندهم ، وإذا كان كذلك أمكن أن يكلمه المشار إليه بالأمر والنهى غير الموافقين للشرع ، فيظن الرائى أنه مِن قِبَل النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يكون كذلك . فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى .

وما أحرى هذا الضرب أن يكون الأمر أو النهى فيه مخالفاً لكمال الأول ، حقيق بأن يكون فيه موافقاً ، وعند ذلك لا يبقى فى المسألة إشكال . نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم ، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر ، وعلى الجملة فلا يستدلّ بالرؤيا فى الأحكام إلا ضعيف المنة .

نعم يأتى المرئى تأنيساً وبشارة ونذارة خاصة ، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكماً ، ولا يبنون عليها أصلاً ، وهو الاعتدال فى أخذها ، حسبما فهم من الشرع فيها ، والله أعلم »[1] .

وهذا كلام يعد غاية فى التحقيق من العلامة الشاطبى رحمه الله .

* * *

(١) الاعتصام : ١/ ٣٥١ - ٣٥٧ ، طبعة المنار .